Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وما عدا ذلك من معان شريك فيها لمن سبقوه أو فاقهم فى الإيجاز ، والبعد عن الحشو الممل ، وجاء فى قصيدته ذات الاثنين وأربعين بيتًا بكل المعانى ، وبأكثر منها ، التى جاءت فى مرثية طليطلة المجهولة القائل ، أو ما قاله ابن الأبار فى بلنسية ، وحين استعبر الماضىّ لم يحاول ، كما فعل ابن عبدون من قبل ، أن يجعل منها معرضًا لعلمه الواسع ، وإنما قنع بأمثلة قليلة ، فى أبيات محدودة ، وأفكاره مرتبة ترتيبًا بديعًا ، واستطاع أن يلون عباراته ، وأن يعطيها إيقاعًا يميزها عن سواها رغم تشابه المضمون ، وكانت هذه الحكم ، تدور حول الاعتبار بما مضى ، خير مدخل مهد به الشاعر لموضوعه ، ثم انتقل منه إلى حادثه الخاص .

وأكد أبو البقاء ـ شأن غيره فى هذا ، على الطباق النفسى والتصويرى فى القصيدة ، لتبدو المفارقة واضحة ومثيرة ، يصور ما كانت عليه المدن الذاهبة وما آلت إليه ، ويبرز ما تعرضت له المقدسات الإسلامية من امتهان : المساجد التى أصبحت كنائس ، والنواقيس التى حلت مكان الآذان ، والأعراض التى استبيحت علانية . وعبر القصيدة كلها لا تجد بيتًا قلقًا ، ولا كلمة زائدة ، ولا لفظًا نابيًا ، وكان أبو البقاء مستجيبًا فى إنشاد القصيدة لإحساس ذاتى غامر ، ومن هنا خلت أبياته من أية صناعة لفظية ، وكانت طابع كل من سبقوه .

●

وحين طار ذكر هذه القصيدة ، وتداولها الناس فى الأندلس وأفريقيا على السواء ، ووجدوا فيها صدى واقعهم صادقًا أضافوا إليها ـ مع الزمن ـ أبياتًا تتحدث عن مدن أخرى استغلب عليها الكاثوليك ، مثل بسطة ـ والمرية ، ومالقة ، ووادى آش ، وغرناطة ، وكلها سقطت فى أيديهم بعد موت أبى البقاء . وهى أبيات ـ إلى جانب استحالة أن يكون أبو البقاء قائلها تاريخا ـ دون القصيدة روحا وفنا وإثارة ، ولحظ ذلك المقرى فى نفح الطيب ، فعقب على القصيدة بعد أن أتى عليها كاملة : « انتهت القصيدة الفريدة ، ويوجد بأيدى الناس زيادات فيها ذكر غرناطة وبسطة وغيرها مما أخذ من المدن بعد موت صالح بن شريف ـ وما اعتمدته منها نقلته من خط يوثق به على ما كتبته ، ومن